

المملكة العربية السعودية

النادي الأدبي بالقصيم

موسم محاضرات عام ١٤٠٦ / ١٤٠٧ هـ

مكتبة

أ. د. محمد عبد الحميد عيسى

حمراء غرناطة

وتطورها

بعد ضياع الاندلس

الدكتور

محمد عبد الحميد عيسى طقور

استاذ التاريخ الاسلامي المشارك

جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

بالقصيم

مكتبة

حوالي صمد سنوات حوال

تعمل هذه المقالة بين جوانبي منكم من ثلاث حوات ، أناقشها فيسي عيسى
فكرى ، وأطورها في خيالي يوما بعد يوم ، لكنني أشفق على نفسي حين أسك القلم
لتسجيل خواطري عنها ، دون أن أدري لماذا التردد دون أن أتقدم لصياغة ما في
نفسي من أفكار .

ولعل السبب في ذلك ، هو خشيتي من صدمة يحسها القارىء العربى مثل
تلك الصدمة التى أحسنا بها ذات ليلة في مدريد ، حين سمينا ، مجموعة من
شباب الدارسين العرب هناك ومن الأساتذة ورجال السلك السياسى ، نستمع الى
عهد المستشرقين الاسبان ، وأشهر علمائهم الدكتور اميليو غارثيا غوسيت حين ألقى
محاضرته الثالثة والأخيرة في مؤسسة " خوان مارش " عن غرناطة خلال عام ١٩٢٩م .

كانت القاعات - تلك الليلة - خاصة بالعلماء والأدباء والمتقنين من الكهول
والشبان ، بصورة لم أرها في حياتي في محاضرة أخرى ، حتى أن المحاضرة كانت
تنقل الى الجمهور عبر شاشات التليفزيون في دائرة مخلقة ، وكان الحشد كبيرا جدا
لا يمكن حسه أو تقديره .

والدكتور غارثيا غوسيت ألقى الشاعرى المؤثر الذى ينفذ الى القلوب والسماع
وهزاد التأثير وقعا على القلوب حين يتناول الصراع غير المتكافئ بين العرب والاسبان
حتى يحتلم المسلمون في غرناطة ، ويدخل الاسبان قصور الحرار دخول الظافى من
المنتصرين ، ويحكم الصمت على الجميع ، وهو يتحدث بعد ذلك عن الحرار وجمالها
وروعة قصورها ، الى أن يصل الى القول بأن الفضل في بقاء ما نراه الآن من عظمة تلك
القصور ، انما يرجع الى تلك الأنامل الاسبانية الرشيقة التى تحمل في صمت وبراعة
على استبدال الأجزاء المنهارة ، وترميمها ، وإعادةها الى صورتها الأصلية بمهارة
وفن عريقين .

واستطرد في الحديث ، حتى خلتنا أن الحرار غير الحرار ، وأن التاريخ
غير التاريخ .

أقول ليلتها كانت غمتا كبيرة ، وآلانا النفسية أشد وقعا ، وليس فقط من
أجل تلك الكلمات ، وإنما لرنة الفرح والخيلاء التى كان يتحدث بها الاسبان من
غرناطة ، تلك الدويلة العربية خاتمة التاريخ الاندلسى ، وكيف أنها لم تكن أكثر

من مجرد مدينة افريقية حكم عليها بالقضاء ، دون أن يكون في إمكانها رد القضاء ،
ولم يكن الأمر كذلك في حقيقة الأمر ، ولعلنا نظرم سريعاً .

غرناطة تاريخياً :

هي " ربانة التاريخ " ، مدينة قديمة تعاقب على وجودها الرومان والقوط
وتتبع بموقع ممتاز في واد عميق شمال غرب جبال الثلج ، كما تطل على نهر شنيسل
المتفرع من نهر الوادي الكبير ، كما يخترقها فرع آخر من هذا النهر يسمى حذرة
وكان النهران يقيمان بالاء ، ومن ثم أينعت ضفافهما بالخضرة ، وغدت بالحدائق
والبساتين ، كما أنها تشرف من جنوبها الغربي على بساط شاسع أخضر ، يعبر في
التاريخ باسم " مرج غرناطة " .

عاشت غرناطة في العصر الاسلامي أبجد أيامها ، وكانت اقلها يانعة
أجبه السرب والمسلمون وأقاموا به حتى أصبحت على أيامهم جنة من جنات الدنيا
تغص بالفياض والبساتين الياض ، والتي بلغت ، على حد قول مؤرخ غرناطة
خالد الصيت ذي الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب حوالي المائة ، بالإضافة
الى ما يقرب من ثلثائة قرية عامرة تابعة لها . وقال ابن الخطيب يصف جمالها :

بلد تحف به الرياض كأنه	وجم جميل والرياض غداره
وكانا واديه معصم غسادة	ومن الجور المحكات سواره

ولعبت غرناطة دوراً هاماً في التاريخ الأندلسي ، وقامت بها احدى ممالك
الطوائف بعد سقوط الخلافة الأندلسية وحكمتها أسرة بنى زيرى البهرية ، وكانت
اولى ممالك الأندلس خضوعاً للمرابطين وترك لنا أميرها عبد الله واحدة من أجمل
ما كتب في الترجمة الذاتية ، حيث ترك لنا مذكراته ، دامجاً حياته الشخصية وتاريخ
غرناطة بأسلوب أدبي جميل .

وخضعت غرناطة للمرابطين ، وللموحدين من بعدهم ، وعاشت أياماً حليوة
تاريخاً وحضارة في ظل هاتين الأسرتين .

ولم يكن أحد يدري أن التاريخ يحتفظ لغرناطة بدور بالغ الأهمية ، أو أنها
سوف تسطر على جبين القدر أروع صفحات البطولة ، وأمجده صفات الخلود .

لم يكن أحد يدري أو يستطيع أن يجمع في أفكاره في تلك الآونة من النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى ، وقلاع الأندلس المهامة ومدنه الغريقة تنهارى واحدة بعد الأخرى لتسقط في قبضة حركة الاسترداد الإسبانية التى بلغت أوجها وقتها منذ بدايات القرن الثالث عشر الميلادى ، حين تمكنت من الانتصار الحاسم على قوات الموحدين في معركة العقاب التى وقعت في عام ١٢١٢ م وكانت ضربة شديدة لسلطان الموحدين ولإسبانيا الإسلامية ، وطاد شبح الغناء يخيم على الأفق وليس قويا منذرا ، حتى سرى ذلك في كتابات العصر وشعره ، ونهاوت كما قلت قلاع الأندلس ، ومدنه الواحدة بعد الأخرى ، فسقطت جزر البليار عام ١٢٢٩ م وقرطبة ١٢٣٦ م ، ولنسية ١٢٣٨ م ، ومرسية ١٢٤٣ م ، ودانية ١٢٤٤ م وأوربوسنة ١٢٤٥ م ، وشاطبة ١٢٤٦ م ، وجيان ١٢٤٦ م وأشبيلية ١٢٤٨ م ، وفي نفس الوقت تساقطت مدن غرب الأندلس الواحدة بعد الأخرى ، ولم يأت منتصف هذا القرن حتى كانت ولايات الأندلس الشرقية والوسطى كلها مرقد سقطت في يد إسبانيا النصرانية ، ولم يبق من تراث الدولة الإسلامية في الأندلس سوى بضعة ولايات صغيرة في طرف إسبانيا الجنوبية .

نعم ، لم يكن أحد يستطيع أن يجمع في أفكاره في هذا الوقت إلى أبعد من هذا الصبر القاسى ، وتركز كل التفكير في شبح الغناء الذى يطل بوجهه الكالح على الأمة الإسلامية هناك ، وطاق بالأندلسيين ، ربح التوجس والخوف والفرح وطاد النذير يهيب بالمسلمين ، أن يخادروا ذلك الوطن الخطر .

أكرر القول ، لم يكن أحد يدري بأن التاريخ قد احتفظ لغرناطة بدور جدهد حيث تنهض هذه المدينة من وسط الركام والأشلاء لترفع راية خفاقة يلجأ إليها الهاربون والشاردون ، وتصبح ملاذا وحسنا لمواجهة هذا السقوط المريع ، وتتجج غرناطة نفس أن تند في عردولة الاسلام والمسلمين على أرض إسبانيا لأكثر من مائتين وخمسين عاما بعد ذلك .

كيف ذلك ؟ انها معجزة التاريخ ، أو ان شئت ملهاته التى لا تجد تفسيرها ، وليس هنا مجال ذكر تاريخ هذه المملكة العظيمة التى كان سقوطها في أيدي الإسبان عام ١٤٩٢ م نهاية لحكم المسلمين في الأندلس ، وحدا لصراع رهيب دار على مدار ثمانية قرون من الزمان .

وأراد التاريخ أن يكتفى غرناطة على هذا الدور البطولى الرائع ، فأهداها
الخلود الدائم ، وحفظ لها درة من دور الآثار الاسلامية الخالدة ، حفظ لها قصر
الحرارة الذى أصبح كعبة يحج اليها الملايين من البشر كل عام ، ليحكى لهم قصة
أمة بنت ودا فعت وهزمت ورحلت وخلقت هناك تاريخا وشاهدا .

الحرارة تاريخيا :

يرجع قيام الحرارة الى القرن الرابع الهجرى ، حيث يشار فى المصادر الى
وجود قلعة هناك تسمى " قلعة الحرارة " بنيت فوق الهضبة الواقعة على الضفة نهر
حدرة اليسرى ، كما كانت هذه القلعة مقرا لأسرة بنى زيرى خلال فترة حكمهم لغرناطة .

ولما غلب محمد بن الأحمر النصرى على غرناطة ابتداء من عام ١٢٣٨ م اتخذ
مركزه فى تلك القلعة ، وبدأ فى تأسيس قصره بداخلها ومن ثم أصبحت هذه القلعة
وهذا القصر مقرا للحكم ، وقاعدة لإدارة مملكة غرناطة على مدى أكثر من قرنين من الزمان .

وفى أواخر القرن السابع الهجرى ، انشأ محمد بن الأحمر ، تانى سلاطين غرناطة
الملقب بالغالب بالله ، الحصن الجديد ، والقصر الملكى ، وأقام ابنه محمد مسجد
القلعة ، وهو من الأجزاء التى أزيلت وأقيم بدلا منه كنيسة القديسة مريم ، ثم جاء
السلطان أبو الوليد اسماعيل فزاد فى القصر وتجديله .

أما أعظم انشاءات قصر الحرارة فانها ترجع للملكين الكبيرين يوسف الأول وابنه
محمد الخامس المعروف بالنسنى بالله . حيث قاما ببناء معظم الأجنحة والأبهاء
الملوكية التى ما زالت تسبح على قصر الحرارة روعتها وسهائنها كما أنها هما اللذان أعدا
على الحرارة روائع الفن والزخرف .

وتقع الحرارة فوق هضبة عالية تشرف على غرناطة ، وهى غارقة وسط بحار من
الأشجار تكاد تحجبها عن أبحار الفضوليين من أهل المدينة والساحين ، لكنها من
موقعها ترتفع كثيرا عن قمم هذه الأشجار ، وتطل على المدينة من عليائها وكبرياتها .

يبلغ طول الحرارة حوالى ٧٣٦ مترا ، أما عرضها فهو نحو مائتى متر ومحيط
بها سور ضخيم ما زالت منه أجزاء كبيرة حتى اليوم شاهدة على مدى عظمتها وتأنسها .

ويتخلل هذا السور عدة أبراج بنى معظمها الى اليوم ، ودمرت قوات نابليون عند
انسحابها من هناك بعض أجزاءها . وأهم أبراج السور الباقية الى اليوم : برج
الحراسة أو الشعة الساهرة ، ويقع في الطرف الغربى من الهضبة ، و برج قمارش
الواقع فوق قاعة السفراء ، و برج التزين ، و برج العقائل ، و برج الآكام ، و برج الآسيمة
و برج الأميرات ، و برج الماء ، و برج الرؤوس . . . الخ .

وسمى هذه الأسماء محدثة وضعها الأسبان بعد ذلك ، ويدور حول تسميتها كثير
من الروايات والأساطير التى تخلب لب الناس ويستمتع اليها السائحون بشغف شديد .

وللفصحة أبواب منها باب التريفة ، و باب الآبار و باب السلاح ، وهناك
باب يطلق عليه الأسبان اسم " باب التهيبة " .

وهناك فى الطرف الغربى من الهضبة ، قلعة قديمة تسمى " حصن الأبراج
الحراء " .

ويقع هضبة الحراء ذو جبال نادر ، فهى تشرف من الشمال والغرب على
مدينة غرناطة ، وعلى مرجها الشهير ، وتشرف من الشرق والجنوب على جبال الثلج
السرونة باسم سييرا نيفادا ، وهى جبال لا يذوب عنها الجليد أبداً ، كما أن الهضبة
تطل من عليها على نهر خدرة وعلى حى البيازين .

أهم أفسام الحراء :

تكتسى الحراء نوا أنيتا من النبل والكبريا ، يجعلها شامخة رغم مسحة الأسى
والآلم التى تكسو جدرانها وروح الحزن المخيفة على أبنائها ونافوراتها ، لكنها مع
ذلك ، أجمل الآثار الإسلامية على الإطلاق ، بل وأكثرها ترفيها ومهجة لعين الزائر
وكم يحجب الانسان لرشاقة بنيانها ، وخفة روحها ، وعظمتها وكبرياتها وكأنها - رغم
كل عوادي الزمن - تريد أن تؤكد لكل زائر أنها مقر الأمجاد وبوطن البطولات ، وأنها
قبل كل شئ - مهد صانعة تاريخ وشاهدة تاريخ ، وأرضها وجدانها حكايات التاريخ .
وتنقسم أبنية الحراء - اعتمادا على كتابات المؤرخ الأندلسى الكبير محمد عبد الله
غان - الى جناحين كبيرين : الأول جناح قمارش الذى يضم قاعة السفراء ، و برج قمارش
الذى يعلوها ، ^{والثاني} جناح الأسود الذى يتوسطه قاعة الأسود ، نسبة الى اثني عشر
أسدا قتل نافورة من الرخا الأبيهم ، تفضى على البهوا حوض ولوحة
منه جلالا الخلاب .

ولنلق نظرة سريعة على أقسام الحراء الرئيسية

فناء الريحان :

وهو أول ما يرى الزائر ، وهو عبارة عن فناء كبير مستطيل مكشوف ، تتوسطه بركة من الماء ، تظللها أشجار الريحان ، وقد تزينت حناياه ببعض الآيات القرآنية والأشعار والدعاء للسلطان ، كما أنه ينتهي بهو صغير جميل يحتوى على مصلى حليت جوانبه بنقوش رقيقة .

بهو السفراء :

يسمى باسم بهو قمارش ، وهو أعظم أقبية الحراء من حيث السعة والارتفاع وهو عبارة عن مستطيل مساحته ١٨ مترا x ١٠٠ مترا ، وله قبة خشبية فخمة يبلغ ارتفاعها ثلاثة وعشرون مترا ، وقد حفر زخارفها على شكل النجوم ، وزخرفت الجدران على نفس الطراز .

وأروع ما فى بهو قمارش زخارف قبة ، ونقوشها نقوش أصلية رائعة ، أما جدرانها فانها تكتسى ثوبا قشيا من جبال الزينة والزخرفة على الرغم من أن ذلك ليس إلا تجديدا لنقوشها القديمة قام به الفنانون الاسبان .

وجميع أرجاء المكان يمجج بالأبيات الشعرية ، والآيات القرآنية ونقشت به سورة " تبارك " كاملة .

فناء الأسود :

هذا الجناح من إنشاء سلطان غرناطة محمد الغنى بالله ، وهو أجمل وأشهر أقسام الحراء ، ويحتل بطرازه المصقول ، وقبابه المخلعة وأعدته الرشيقة ، وزخارفه البديعة ، وناوخته الفريدة التى تحملها الأسود أرواح أجنحة الحراء وأوفرها رواة وسحرا .

وفى وسط الفناء نافورة الأسود الشهيرة ، وهى عبارة عن نافورة يحمل جوفها البربرى المستدير النظم اثنا عشر أسدا ، صفت على شكل دائرة ، وضحت من الرخام الأبيض . وهى فى مجموعها ، رغم عوامل الزمن وتأثير الرياح والأمطار ، لا تزال تعد من أجمل التحف الفنية فى قصر الحمراء ، وكمن الأساطير حيكمت حولها أسرار حول سباعها ، وانصباب الماء من أفواهها .

وبالفاء أنخم مجسوة من أعمدة الرخام الأبيض الرشيقة ، والنقوش البديعة
التي تأسر السائحين بمنظرها وتناسقها وجمالها .
ويطل على بهو السباح عدة قاعات تعد تحفة فنية رائعة ، بل تكاد تكون أكمل ما فنى
قصر الحمراء كالأروقة وزخرفة ونقوشها ، فهناك قاعة بنى سراج وهى قاعة عظيمة
أرضها بالرخام المرمرى ، وفوق قبة عالية معلقة وفى كلا الجانبين الأيمن والأيسر
عند عرس بديع مزين بزخارف عربية جميلة وفى وسط القاعة نافورة صغيرة فى أرضها
بمنزلة الصدا ، لكن مرشد السائحين يزعمون بأنها آثار دماء أسرة بنى سراج التي
أسلمها السلطان فى هذه القاعة .

أما قاعة الملوك فقد دخلها عند بديع مثلث الجوانب ، وهى ثلاث عقود أو خانات
وفى المقعد الأوسط رسمت عدة صور يقال أنها لملوك غرناطة .

وتواجه قاعة بنى سراج ، قاعة تسمى "قاعة الأخوين" لوجود قطعتين
من الرخام كبيرتى الحجم غريبتين ضمن منوشات أرضها ، وتشبه هذه القاعة فى رسمها
ونقوشها القاعتين الأخرتين ، وتتقوس هذه القاعة بمشرف يطل على حى الهازين وعلى
فناء السرويس منظر اللندراخا .

والحمراء واسعة ، وتضيقاتها كثيرة ، وليس المقصد هنا التعريف بهـ
بكتنى فقط أرد أن أشير إلى أن هذه النقوش الرائعة التى تزين قصر الحمراء الآن -
أو على الأقل فى جزء كبير منها - إنما هو تجديد قام به القانون الإسبان فى العصور
الحديثة مطولين أعمدها إلى صورتها الأولى .

اهتمام الإسبان بالحمراء :

ظلت غرناطة بعد سقوطها على يد الملكين الكاثوليكين سنة ١٤٩٢ م ، مقرا
لاقامة ملوك اسبانيا ، وسحطا لرعايتهم مدة طويلة من الزمن ، ثم بعد ذلك دخلت
فى طور من الاعمال والنسيان ، وعاشت الحمراء فى صمت رهيب ، سكنتها الهسبام
والخفافيش ، وأبست بين جدرانها مئات الحكايات والأساطير .

وكان للكاتب الأمريكى واشنطن ابرفج ، وكتابه " حكايات الحمراء " الفضل
فى لفت أنظار الإسبان والعالم إلى هذا الأثر الخالد ، ومن ثم بدأ الإسبان فى

المناية به • وتجديده • واصلاح ما تهدم من نقوشه وجدارانه •

اقام الاسبان مجسوة من الورش المتخصصة في التجارة والبياض والزخرفة
لكي تعمل على انتاج ما يحتاجه القصر الكبير من قطع لاصلاح ما يفسد من رسوماته
الأصلية ومنها :-

ورشة لصب لوحات جيرية بشعار بنى نصر " لا غالب الا الله " وكذلك بعض
الرسم الزخرفية والمهندسية لكي يتم تركيبها في الأماكن التي تتساقط زخارفها القديمة
ورغم أن المال لا يعرفون اللغة العربية الا انهم يؤدون أعمالهم بمهارة رائعة
ويستخرجون لوحات • تكاد أن تكون أصلية لدقة النقل والتصوير •

ومنهم ورشة نجارة يعمل بها نجار واحد يعمل في صناعة الأبواب الخشبية
بنفس الطريقة والرسم التي كانت عليها أبواب الحمراء • ولقد شاء لي أن التقط لسه
صورة بجوار باب جديد أفنى فيه من عمره عدة سنوات لكي يحل بدلا من أحد أبواب
القصر الأصلية والسورة وان لم تكن واضحة تماما الا انها تظهر قسما وجه الرجل
الى جوار التحفة التي صنعها •

مدرسة يجب أن تهفى :

وجرى ذكر الرجل رفته مع السنيور " رامون أرنجود " سفير اسبانيا السابق
في الكويت ودول الخليج قال لي : ان هذا الرجل مدرسة يجب أن تهفى • وواجبنا
وواجب البلاد العربية • أن نسمى لكي يتعلم عليه بعض الطلاب حتى يتشربوا فيه
ويواصلوا رسالته لأنه ربما كان أحد قلة يمتلكون مهبة العبر والابداع في هذا المجال •

متحف الآثار العربية الاسبانية :

من الأخبار السارة والمطجئة التي يحملها هذا المقال الى قرائه وإلى غيرهم
من العرب • قيام اسبانيا ببناء متحف للآثار العربية الاسبانية في مدينة غرناطة
بجوار الحمراء ولعله • ان افتتح بكامله بعد اكبر متحف للفن الاسلامي في العالم كله •
ولم يفتح رسميا حتى الآن • لأنه لم يستكمل منشأته وأجهزة الأمن به •

ولقد شاء حتى أن أزرع هذا المتحف منذ هجرة أعوام مع الاستاذ الدكتور
السيد عبدالعزيز سالم • أستاذ التاريخ الأندلسي بجامعة الاسكندرية • والأستاذ

الدكتور ابراهيم شبح من تونس مؤيد من قبل الاتحاد العام للمؤرخين العرب
لكي تعان المتحف على أمل أنه كان يمكن افتتاحه مع افتتاح مهرجان الأندلس
الذي تقدم به الاتحاد الى الجهات الاسبانية ثم نكس على عقبه دون أسباب
معقولة مسببا بذلك حرجا شديدا لكل عرس قد يعرف القصة على حقيقتها .

ويومها التقينا بدير الحراء والمتحف ، السنيور أنطونيو وصحبنا في جولة
في روع هذا المتحف الرائع الذي سيكون ولا شك أكبر متحف اسلامي في العالم -
على الأقل من ناحية الحجم .

ملاحظات :

عنيت مقالى بالحراء تغير جلدها ، ولم يكن ذلك عنوانا صحفيا بقدر ما هو حقيقة
تاريخية أكدت لها لي تلك الرحلة المشار اليها ، وأرتنى كم كان على حق المستشرق
الكبير " اميليو غارثيا غوسيت " يوم قال ان الحراء قد عاشت لأن أيد اسبانية رقيقة
قد تسهدتها بالتجديد والسطاية . لكن لم يدربخلدى ، أن التغير سيكون
كبيرا ، وخاصة في الأيام القريبة التالية .

النافورة راحلة :

ليس في الحراء أكثر جاذبية من بهو السباح بنافورة الخلية التي يحلها
اثنا عشر أسدا ، ولكم تجمع السائحون حولها يستمعون الى اسطورة الأسود التي
كان يلقي الماء من فيه أحد هم ساعة من النهار ، وأن أحد اليهود قد استأذن ملوك
اسبانيا في الحفر اسفلها لكي يتبين سرها ، ويتسبب في عملها ^{وتوقف} الأسود عن
القاء الماء في وقت معين من النهار . هذه النافورة ذات التاريخ ، سوف ترحل من هذا
المكان لأنها مهددة بالرطوبة ، ويخشى على رخامها من عوامل المناخ ، ومن ثم لا مفر
من ادخالها المتحف المشار اليه وأن تترك عرشها لتستقر عليه أخرى صنعها الاسبان
واستعدوا لكي يحتفلوا في القريب بتمجدها مكان النافورة الأصلية التي سوف تنزوي بسباعها
داخل قاعة تتحكم فيها آلات قياس الحرارة والبرودة والرطوبة . . . الخ .

ولن يقتصر الأمر على النافورة والسباح ، فهناك أيضا بعض الأبواب
الأصلية ، تستعد لتحتل مكانها في متحف غرناطة الحضارى ولتحل محلها
أبواب أخرى من ذات الطراز العرسى التى قام بصنعها ذلك الفنان الاسبانى
المغمور فى مبنى مترو داخل قصر الحراء •

والى مقالة أخرى لنفصح المجال أكثر عن الحراء وعن باقى آثار غرناطة •

دكتور / محمد عبد الحيد عيسى
مدرس التاريخ الاندلسى بكلية التربية
جامعة عين شمس